IUGJHR
Vol 27, No 01, 2019, pp 221-242

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الانسانية

تاريخ الإرسال (2017-11-10)، تاريخ قبول النشر (2018-01-08)

بيت المقدس في أدب الرّحلات المغربيّة/ رحلة البلوي أنموذجاً

د. رغدة علي الزّبون [1,*]

[1] قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة العلوم الاسلامية العالمية

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address dr_alii1979@yahoo.com

الملخص:

انطلاقا من المكانة الدّينيّة والتّاريخية والعلميّة التي حظيت بها مدينة القدس تهدف هذه الدّراسة إلى استجلاء صورة بيت المقدس في أدب الرّحلات المغربيّة عموما وفي رحلة خالد بن عيسى البلوي المعنونة:"تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" على وجه مخصوص، وذلك بالوقوف على ما تضمّنته هذه الرّحلة وغيرها من الرّحلات المغربيّة من معلومات وأخبار ومشاهدات قدّم من خلالها الرّحالة وصفا دقيقا للأماكن المقدّسة ومكانتها :الدّينيّة والرّوحيّة، وما تميّزت به من النّاحية العمرانية وجمالها الطبيعي، ومكانتها العلمية التي بدت واضحة من حديثهم عن مجالس العلم التي حضروها والتقوا فيها بكبار العلماء والشّيوخ الذين قصدهم طلبة العلم من المشرق والمغرب.

كلمات مفتاحية: بيت المقدس، رحلة البلوي

Jerusalem in Andalusian Travel Literature / Balawi's Travel as a Model

Abstract

Based on the historical, religious, and scientific status of Jerusalem, the current study aims at exploring the image of Jerusalem in the Andalusian travel literature, namely in Khalid Ibn IsaBalawitravelentitled: Taj al-mafriq fitaḥliyatulama' al-Mashri.

The study underlines details of the trip in terms of information, news, events, and description of religious places.

The study also points out to features of Balawi's trip, mainly the style and the descriptive mechanisms which were followed to show the beauty of Jerusalem.

Keywords: Jerusalem - Balawi's Travel

IUG Journal of Humanities Research (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

تقديم:

تميّزت مدينة القدس الشّريف منذ أقدم العصور بمكانتها الكبيرة في نفوس العرب والمسلمين، وذلك لأسباب عدّة: دّينيّة وعلميّة وتّاريخية، وأمّا مكانتها الدّينيّة فهي الأكثر عمقا وارتباطا في النّفوس؛ فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين وموطن الإسراء والمعراج، ولا تقتصر مكانتها الدّينيّة على المسلمين وحدهم، وإنّما" انفردت القدس بأهميتها الرّوحيّة كمركز لتراث المسلمين والمسيحيين واليهود على السّواء، فهي في نظرهم مهبط الوحي ومركز الأديان والمكان الذي حظي بزيارة معظم الأنبياء والرّسل، فالقدس مقدّمة لكل الأديان السّماويّة فهي مدينة الله"([1]).

ونظرا للمكانة الكبيرة التي حظيت بها مدينة القدس فقد كانت محط اهتمام الرّحالة المشارقة والمغاربة" فكانت مقصدا رئيسا للرّحالة العرب والمسلمين طوال عصور التّاريخ"([2])، وإذا ما نظرنا في رحلات المغاربة فإننا نجد" ما لا يعدّ ويحصى من الرّحالة المغاربة، فمنهم الحجّاج والمثقّفين والمؤرّخين والسّفراء"([3]).

ولقد كانت علاقة المغاربة ببيت المقدس ومحبّتهم له متميّزة ولافتة للنّظر على مرّ التّاريخ؛ إذ زاروه لغايات متعددة ووصفوه، فنجد أن " بعضهم وصفوه دون أن يشاهدوه، و(البعض) الآخر زاره تبرّكا بمقدساته أو تلقيا للعلم في جامعته(المسجد الأقصى)، والبعض الثّالث هرعوا إليه كجنود مجاهدين لتحريره أو الدّفاع عنه"([4]).

ونظرا لارتباط المغاربة الوثيق ببيت المقدس وزيارتهم له والإقامة فيه كانت لهم معالم خاصّة بهم، نحو: جامع المغاربة(5)، وزاوية المغاربة([6])التي أوقفها الشّيخ عمر بن عبد الله بن عبد النّبي المغربي المصمودي المجرد، وحارة المغاربة التي حظيت على مرّ التّاريخ بأوقاف مالية وعينيّة كثيرة من ملوك وأعيان المسلمين"(7).

ولقد رصدت المصادر أسماء الرّحالة المغاربة وحتى المشارقة الذين زاروا بيت المقدس ودوّنوا رحلاتهم ومشاهداتهم فيه، ومن تلك المصادر كتاب كامل العسلي المعنون" بيت المقدس في أدب الرّحلات"، وما يعنينا في هذا السّياق هو أهم الرّحلات المغربيّة التي ظهرت فيها محاور هذه الدّراسة([8]) جليّة نحو: رحلة ابن العربي ، وهي موجودة في كتابه قانون التأويل، ورحلة العبدري وعنوانها "الرّحلة المغربيّة"، ورحلة ابن بطوطة وعنوانها"تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، ورحلة بنيامين التّطيلي، ورحلة البلوي وعنوانها"تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، ورحلة المقّري. وسيتم التّركيز في هذه

([1])العبّادي، نظرة أهل المغرب والأندلس نحو القدس ص 407..
([2])العسلي ، بيت المقدس في كتب الرّحلات عند العرب والمسلمين، 16.
([3]) مبيضين، القدس في رحلة ابن عثمان المكناسي، ، ع 76، ص 180..
([4])العبّادي، نظرة أهل المغرب والأندلس نحو القدس، ص 421
([5])العليمي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج2، ص 15.
([6])المصدر نفسه، ص 44.
([7])العسلي، الأعمال المقدسية الكاملة، مجلد2، ينظر تفصيل هذه الأوقاف في البحث الأوّل من الكتاب وعنوانه"حارة المغاربة في القدس وأهميّتها التّاريخيّة"، ص22..
(8) .هذه المحاور هي: مكانة بيت المقدس من الناحية: الدينيّة، والعلميّة، والعمرانيّة، وقد تم تحديدها استنادا لما عرضه البلوي في تاج)المفرق(محور هذه الدّراسة الرئيس) من مشاهد.

الدّراسة على رحلة البلوي وتحليلها موضوعيا بالاعتماد على المنهج الوصفي التّحليلي؛ لأنّها الأطول من حيث الكم، ولأنّ البلوي عرض فيها لجوانب متعدّدة تتصل بالنّاحية العلميّة والدّينية ووصف المكان، وأمّا الرّحلات الأخرى فلم تظهر فيها جوانب هذه الدّراسة كلّها فبعضها اعتنى بالنّاحية العلميّة وركّز عليها أكثر من غيرها، وبعضها الآخر اعتنى المكان ووصفه أكثر من الجوانب الأخرى. وفيما يلي تعريف موجز بأهم هذه الرّحلات.

رحلة الإمام أبي بكر ابن العربي([9]):

صاحبها الإمام العالم القاضي فخر العرب أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، قاضي قضاة كورة إشبيلة، ذكره الحجاري في المسهب، رحل إلى المشرق مع أبيه مستهل ربيع الأوّل سنة خمس وثمانين وأربعمائة، ودخل الشّام والعراق وبغداد وسمع بها من كبار العلماء ثمّ حجّ في سنة تسع وثمانين وعاد إلى بغداد ثمّ صدر منها([10])وأما دخوله بيت المقدس فكان سنة (هـ486/1093م) ، وكان هدفه الأوّل من رحلته هو تحصيل علوم المشرق فقد وجد الكثير مما كان يبتغيه في بيت المقدس([11])، وقد أقام فيها حوالي ثلاث سنوات نظرا لما وجده فيها من العلم والمعرفة([12]).

رحلة العبدري"الرّحلة المغربيّة":

صاحبها محمّد بن محمّد بن علي بن أحمد بن مسعود أبو عبد الله الحاحي، المشهور بالعبدري نسبة إلى عبد الدّار وهي قبيلة من جنوب المغرب الأقصى، أصله من بلنسيّة بالأندلس، وكان يسكن في بلدة حاحة بالمغرب الأقصى، عزم العبدري على الرّحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج، فسافر إليه برفقة ابنه في الخامس والعشرين من سنة 668هـ([13])، وقد سجّل في رحلته كل ما رآه إيابا وذهابا، وكان قد مر بكثير من المدائن في المغرب الأقصى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأدنى، ومصر، والحجاز، وبعد آداء فريضة الحج عرّج على فلسطين، وزار بعض مدنها وأقام فيها بعض الوقت ومنها إلى القاهرة ثمّ قفل راجعا إلى بلاده([14]). وأمّا زيارته لبيت المقدس فقد جاءت في حوالي أربعة صفحات من رحلته([15])، تناول فيها الحديث عن المدينة المقدّسة ومكانتها الدّينيّة، ووصف المسجد الأقصى وقبّة الصّخرة، وعرض أيضاً للحياة العلميّة

رحلة ابن بطّوطة" تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار":

([9])ذكر كامل العسلي أن ابن العربي دوّن هذه الرّحلة في كتاب أسماه "ترتيب الرّحلة للترغيب في الملّة" ولكن هذا الكتاب ضاع، غير أن أقساما منه وصلتنا عن طريق كتب أخرى له، وأهمها كتاب ابن العربي الموسوم قانون التّأويل، الذي كان مفقودا وعثر عليه إحسان عبّاس ونشر الجزء الخاص بالرّحلة في مجلّة الأبحاث البيروتيّة المجلّد 21، لسنة 1968، يُنظر كتاب بيت المقدس في كتب الرّحلات عند العرب والمسلمين، ص 51. وفي هذه الدّراسة سيتم الاعتماد على نص الرّحلة الوارد في كتاب قانون التأويل، لابن العربي بدراسة وتحقيق محمد السليماني ط 1سنة 1986، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق،دار القبلة للثّقافة، جدة،من ص 433-443

([10])المقّري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، ص 25.

([11])العسلي كامل، بيت المقدس في كتب الرّحلات، ص 51

([12])ابن العربي، قانون التأويل، ص 433.

([13]))العبدري، الرّحلة المغربيّة ، تقديم سعد بو فلاقة، يُنظر ص 7.

([14]))المصدر نفسه، ص8.

([15]) الرّحلة المغربيّة تحقيق محمّد الفاسي، جامعة محمّد الخامس، 228- 231.

وصاحبها أبو عبد الله محمّد بن عبد الله اللواتي الطّنجي، المعروف بابن بطّوطة، وقد بدأ رحلته في رجب سنة 725 هـ وانتهت بوصوله إلى فاس في ذي القعدة سنة 754هـ، أي أنها استغرقت تسعة وعشرين عاما ونصف تقريبا، وهي في الحقيقة مجموعة من الرّحلات وليست رحلة واحدة، وإنّما أطلق عليها رحلة لأنّه لم يعد إلى موطنه المغرب إلا بعد انتهائها، ليستقرّ فيها، ويلقي عصا التّسيار ، ويقرّ عينا بالإياب ، وقد طوّف في هذه الرّحلات بأكثر بلدان العالم المعروف في عصره، وزار بلدان قارتي آسيا وإفريقيا، وبعض من بلدان قارة أوروبا([16]).

ويُذْكر أنّ ابن بطّوطة زار بيت المقدس مرتين، الأولى سنة (726هـ/ 1325م)، والثّانية سنة (749هـ/ (1348م) ، وكان في زيارته الأولى قد قدم إليها من مصر([17])،وأمّا الأمور التي وقف عندها ابن بطوطة في رحلته إلى بيت المقدس فكانت تدور حول ذكر المسجد المقدّس ووصفه، وذكر قبّة الصّخرة وصفها، وذكر أيضاً بعض المشاهد المباركة في القدس الشّريف وذكر بعض فضلائها([18]).

رحلة بنيامين التّطيلي:

صاحبها الرّابي([19]) بنيامين بن يونة التّطيلي النّباري([20])، أشار محقّق هذه الرّحلة أنّه على كثرة ما عالج المؤرّخون رحلة بنيامين بحثا وتمحيصا، ودقّقوا النّظر في محتوياتها، وراجعوا حوادثها وقايسوا بين نصوصها المخطوطة والمطبوعة، لم يتوصّلوا إلى ما يلقي الضّوء على سيرة هذا الرّحالة الكبير ومولده ونشأته ومركزه العلمي والاجتماعي، وكل ما يعرف عنه مأخوذ عن المقدّمة الوجيزة التي صدّر بها الرّحلة كاتب مجهول الهويّة، ربّما كان معاصرا لبنيامين([21]). وجاء في مقدّمة هذه الرّحلة أنّ بنيامين جاب المدن البعيدة وسجّل كلّ ما شاهده عيانا في الأمصار التي مرّ بها، أو نقله عن الثّقات ذوي الأمانة المعروفين لدى يهود إسبانية، وبالأخير دوّن هذا الكتاب عند أوبته إلى قشتالة سنة (569هـ–1173م)وفي رواية أنّه توفي في السّنة نفسها. ويستمر صاحب هذه المقدّمة في تعريفنا بهذا الرّحالة، فيقول: إنّه كان من الثّقات العارفين بالتّوراة والشّرع([22])، ويشير كاتب مقدّمة الرّحلة إلى أنّ بنيامين كان تاجرا وأنّه خرج في رحلته هذه بدافع الاطّلاع الشّخصي، ووجهته بالدّرجة الأولى إلى الشّرق الإسلامي([23])، غير أنّ القارئ لهذه الرّحلة يلمس عناية بنيامين الواضحة بالوقوف على كلّ ما يتّصل باليهود والنّصارى من أماكن وأخبار وأعلام يهود، وقد تجلّى هذا واضحا في معرض حديثه عن زيارته لبيت المقدس، فلعلّ غاية دينيّة عرقيّة كانت في نفسه أيضاً.

([16]) ابن بطّوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص 9.
([17])العسلي، بيت المقدس في كتب الرّحلات، ص 68.
([18])رحلة ابن بطّوطة، ص76-77.
([19]) لفظة الرّبي أو الرّاب وقد يقال ربن أيضا لفظة عبريّة تعني السّيد الأستاذ، يلقب بها اليهود علماءهم ووجهاءهم،وجاء في تاج العروس الربن المتقدّم في شريعة اليهود، ويطلق العرب لفظة الرّبي والرّباني على المتألّه المتعبّد، ينظر مقدّمة الرّحلة هامش 2، ص178.
)ورد اسمه في مقدّمة الرّحلة ص178.[20](
([21]) بنيامين، رحلة بنيامين، ، ينظر المقدّمة (ص137).
([22])المصدر نفسه، ص 138.
([23])المصدر نفسه، ص (139).

رحلة البلوي" تاج المفرق في تحلية علماء المشرق":

صاحبها خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي، وصفه الشّاطبي بأنّه الشّيخ الفقيه القاضي الأعدل([24])، وذكر المقّري أنّ هذه الرّحلة مشحونة بالفوائد والفرائد، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوز الرّائد([25])، وأشار حسن السّائح محقق هذه الرحلة إلى أنّ البلوي كان كغيره من الأندلسيين والمغاربة الذين اعتادوا حياة الرّحلات والأسفار طلبا للعلم والاتّصال بالعلماء أو آداء للحج والوقوف على ربوع ديار الإسلام أو للتّجارة ونقل البضائع ...فقد رحل البلوي أولا إلى مدينة فاس للدّراسة بها ثمّ رحل ثانيا إلى المشرق لأداء فريضة الحج ثمّ رحل ثالثا إلى شرق الأندلس للتّجوّل في هذه النّاحية تمتينا للاتّصال بالعلماء وتبادل الرّواية معهم واطّلاعهم على إنتاجه([26]). وأمّا ما يعنينا من رحلاته هذه فهي الرّحلة الحجازية أو"تاج المفرق" التي قام بها من بلدة قيتورية في يوم السّبت ثامن عشرمن شهر صفر سنة 736هـ مارّا بالجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشّام قاصدا بيت الله الحرام وزيارة قبر الرّسول –عليه السّلام–، وقد أكمل أبو البقاء هذه الرّحلة في أول شهر ذي الحجة سنة 740هـ ، وقد وصف فيها تلك البلاد التي نزل بها وأقام فيها، وفرغ من رحلته في آخر شهر ربيع الأوّل سنة 768هـ([27])، وأمّا زيارة البلوي لبيت المقدس فكانت يوم الأربعاء الثّاني عشر من شعبان سنة 737هـ([28])، ودوّنها في رحلته وركزّ في الحديث عنها على وصف بيت المقدس وصفا دقيقا لزواياه وأركانه وأبوابه وقبابه، وتحدّث أيضاً عن النّاحية العلمية في المدينة وأشهر مدارسها والشيوخ الذّين لقيهم وأخذ عنهم العلم والمعرفة.

رحلة المقّري:

صاحبها أحمد بن محمّد بن أحمد المقّري القرشي المكنّى بأبي العبّاس الملقّب بشهاب الدّين، ولد سنة 986هـ بتلمسان، وأصل أسرته من قرية مقّرة، نشأ بتلمسان وطلب العلم فيها، وانتقل منها إلى فاس ومضى يطلب العلم على شيوخها، وانتقل مع الفقيه الآيسي أحد قواد السّلطان أحمد المنصور إلى مراكش وهناك أخذ عن كبار علمائها وأدبائها، وتولّى الإفتاء في مدينة فاسسنة 1022([29])، وبعدها بدأت أنظاره تتجه نحو المشرق، فرحل عنها لما لقيه من الحسد على المكانة التي وصل إليها عند السّلطان السّعدي([30])، ولقد زار المقّري القدس مرّتين ، قادما من مصر المرّة الأولى في ربيع سنة 1029هـ/1620([31])، والمرّة الثانية في رجب 1037هـ/1627([32])، وقد وقف المقّري في حديثه عن زيارته لبيت المقدس على مكانتها الدّينيّة والأثر الرّوحي لتلك الزّيارة.

([24]) المقري، نفح الطّيب، ج2، 532.
(26)المصدر نفسه.
([26])البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدّمة بقلم الحسن السّائح،1964، 39.
([27])المصدر نفسه ص 40.
(29) البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج 1،ص245.
([29]) ينظر تفصيل ذلك في مقدّمة إحسان عبّاس، نفح الطّيب، ج1، ص5-7.
([30]) المصدر نفسه ، ص 7.
([31])المقري، نفح الطّيب، ج1، ص54.
([32])المصدر نفسه، ص 57.

أوّلا: المكانة الدّينيّة لبيت المقدس

لقد اتّفقت كتب رحلات المغاربة في الوقوف عند مكانة بيت المقدس الدينيّة، والتّعبير عن ارتباط الرّحالة الرّوحي بها، ولعلّهم لم يكونوا بدعا في هذا الجانب، ذلك لأنّ مكانة القدس ترتكز"في العقيدة الإسلاميّة إلى ثلاثة أصول مرتبطة بعضها ببعض:الأوّل أنّها مدينة الرّسل والأنبياء.والثّاني أنّها المكان الذي أُسري بمحمّد –صلّى الله عليه وسلّم– إليه، ومنه كان معراجه. والثّالث، أنّها القبلة لأولى للمسلمين، وعن هذه الأصول الثّلاث تتفرّع فضائل بيت المقدس الكثيرة التي حفلت بها كتب التّراث، وخاصّة كتب فضائل بيت المقدس"(33)، ولقد ظهرت هذه الأصول جلية في رحلة البلوي، حيث وقف عند مكانة بيت المقدس الدّينيّة فأشار إلى فضله وارتباطه الرّوحي به وحرصه على مجاورته، وذلك حين قال:"وشاهدت أحد المساجد الثّلاثة التي لا تشدّ إلا إليها الرّحال وعاينت الحرم الشّريف حقيقة قد أحلّني لديه التّرحال، اخترت مجاورته وآثرت ملازمته وقلت أين أذهب عن موطن مهبط الرّحمة وموضع محشر الأمّة، ومحل تفرج الكربة والغمّة "(34)ويؤكّد البلوي هذا الفضل لبيت المقدس مستعينا بقول الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام– :"لا تشدّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرّسول، والمسجد الأقصى، رواه البخاري ومسلم، ولمسلم قال إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد، الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيلياء"(35)، ولم يكتف البلوي بهذا الحديث فحسب، ساق أحاديث نبويّة أخرى في هذا السّياق لا تحثّ على زيارة بيت المقدس فقط ،على الإقامة فيه أيضاً، ومن ذلك ما رواه بسند الحديث السّابق مرفوعا إلى ذي الأصابع رجل من أصحاب النّبي – صلى الله عليه وسلّم– رضي الله عنهم، قال قلنا يا رسول الله أرأيت إن ابتلينا بالبقاء بعدك أين تأمرنا، فقال فعليك ببيت المقدس فعسى الله أن ينشئ لك ذريّة يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون"(36). ويورد أحاديث النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– التي يشير فيها إلى الأجر الكبير الذي يتأتى من زيارة بيت المقدس والصّلاة فيه، وبالسّند السّابق عن أنس –رضي الله عنه– عن النّبي– صلّى الله عليه وسلّم– قال، من زار بيت المقدس محتسبا لله –عزّوجل– حرّم الله لحمه وجسمه على النّار، وبه عن أبي الدّرداء عن النّبي –صلّى الله عليه وسلم– أنّه قال: أفضل صلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة وفي مسجدي ألف صلاة وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة، وبه عن أبي ذر رضي الله عنه– قال قلت يا رسول الله الصّلاة ها هنا أفضل أم الصّلاة في بيت المقدس، قال صلاة في مسجدي خير من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلّى هو أرض المحشر والمنشر"(37) ويشير البلوي في هذا الجانب إلى أن أحاديث الرسّول الكريم كثيرة ، فيقول:"ولو تتبعت الأحاديث المأثورة والأخبار المشهورة لأملأت ومللأت ورويت "(38).

(33)العسلي، الأعمال المقدسيّة الكاملة، ج3،ص 321.
(34))البلوي، تاج المفرق، 254.
(35)روى البلوي هذا الحديث بسنده عن قاضي مدينة القدس سماعا منه عليه بحرم المسجد الأقصى وأكمل السّند عنه مرفوعا إلى أبي هريرة رضي الله عنه ويرويه عن مسلم والبخاري ، ينظر تاج المفرق ج، 1، ص 255 .
(36)البلوي، تاج المفرق، ج1، ص255.
(37) المصدر نفسه، ص ،255.
(38)المصدر نفسه، ج1، ص.256

ويقف البلوي عند ميزة أخرى لبيت المقدس خُصّ بها دون غيره من الأماكن المقدّسة، فهو موطن الإسراء والمعراج، هذه المعجزة التي تمّت الإشارة إليها بالخطب الأدبيّة التي كانت تزيّن بها المدارس المحيطة ببيت المقدس، ومن ذلك ما قيّده منها برحلته، ونصّه:" بسم الله الرّحمن الرّحيم الحمد لله الذي رفع لبيت المقدس في سائر الملل ذكرا، ..وجمع القلوب على محبّته تعظيما لرتبته، وقدرا، وأسرى بخير خلقه إليه ثمّ أنزل عليه صلوات الله عليه، سبحان الذي أسرى"([39]).

ومن الآثار الدينيّة التي أشار إليها البلوي وجود أثر لقدم النّبي –عليه الصّلاة والسّلام– في الطّرف القبلي من الصّخرة الشّريفة يتبرّك به النّاس ويمرغون خدودهم فيه([40]).

ويشير البلوي إلى أنّ الغاية الدّينيّة كانت إحدى الأسباب التي جعلت من بيت المقدس –علاوة على فضائله الأخرى لا سيّما من الناحية العلمية التي سنقف عندها – مكانا يقصده النّاس للعبادة، وقد أشار البلوي إلى هذا بقوله:" ورويت هذا إلى ما أطلعه الله في ذلك الأفق المنير من بدور العلماء وامتنع من صدور الأولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع وقصدوا إلى العبادة فيه والانقطاع"([41])

ويظهر في رحلة العبدري"الرّحلة المغربيّة" الإحساس بعظمة المسجد الأقصى ومكانته الدّينيّة الكبيرة وما له في النّفوس من مكانة وأثر روحي، وذلك من خلال الإشارة إلى فضائله التي تضمّنتها الأحاديث النّبويّة التي ذكرها البلوي، فهو من المساجد التي تشدّ إليها الرّحال، وهو معراج النّبي –عليه السّلام–، وتتجلّى هذه المعاني في قوله:"ثمّ وصلنا إلى البيت المقدّس زاده الله تعظيما وألحفه مبرّة دائمة وتكريما، مسجد الأنبياء وقبلتنا قديما، ومطلع الأولياء يطلعهم عظيما فعظيما،أحد المساجد التي تعمل إليها المطيّ، وتضاعف بها الحسنات لكلّ برّ تقي، مصعد نبيّنا عليه السّلام، ..ومعراجه حين عسعس الظّلام، إلى مناجاة الملك العلّام، والقدس المقدّس المنفي من الآثام"([42]).

ويقف ابن بطوطة في رحلته إلى بيت المقدس عند فضائله الدينيّة ذاتها التي ذكرها البلوي والعبدري، فيقول:"ثمّ وصلنا إلى بيت المقدس شرّفه الله، ثالث المسجدين الشّريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم –تسليما، ومعراجه إلى السّماء"([43])، ويذكر ابن بطوطة بعضا من المشاهد المباركة بالقدس الشّريف، فيورد منها:" فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنّم في شرقي البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال إنّها مصعد عيسى عليه السّلام إلى السّماء"([44]).

ويصوّر المقّري في رحلته الأولى إلى بيت المقدس شوقه إلى زيارته والدّهشة التي اعترته من جمال ما رأى، ولهفته لتلمّس أثار النّبي –عليه السّلام– فيه ورؤية محل معراجه عليه السّلام، يحدوه في كلّ ذلك طلب المغفرة والعفو، فيقول:"ثمّ

([39])المصدر نفسه، ج1، ص 253..
([40]) المصدر نفسه، ص251.
([41]) المصدر نفسه،ص 256.
([42])العبدري، الرّحلة المغربيّة، ص228.
([43])رحلة ابن بطوطة، ص 75،
([44]) نفسه ص 77.

قصدت زيارة بيت المقدس في شهر ربيع 1029، وقد شملتني بفضل الله جوائز الإنعام، وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك الصّعبة قول حافظ الحفّاظ ابن حجر –رحمه الله– وهو ممّا زادني في الزّيارة رغبة:

إلى البيت المقدّس جئت أرجو جنان الخُلدِ نُزْلا منْ كريمِ

قَطَعْنا في مسافتهِ عقاباً وما بعدَ العِقابِ سوى النّعيمِ

فلما دخلت المسجد الأقصى، وأبصرت بدائعه التي لا تُستقصى، بهرني جماله الذي تجلّى الله به عليه، وسألت عن محل معراج الشّريف فأرشدت إليه، وشاهدت محلّا أمّ فيه صلّى الله عليه وسلّم الرّسل الكرام الهداة"([45]).

إنّ مكانة بيت المقدس الدينيّة لا تقتصر على ما فيه من مقدّسات تتصل بالمسلمين وحدهم ، أشارت كتب الرّحلات إلى مكانتها الدّينية عند النّصارى واليهود، ففيها أماكن مقدّسة عندهم يعظّمونها ويقصدونها بالزّيارة، فهي "تحتلّ مركزا رفيعا في قلوب المسيحيين، ينظرون إليها نظرة تقديس وإجلال، شأنهم شأن اليهود والمسلمين، فهي عندهم بلد التّوراة ومهد المسيح ومنبت النّصرانيّة، وحيثما تنقّلوا في أرجائها وجدوا تراث الحواريين وكنائس القديسين"([46]) ومن ذلك ما أورده ابن بطّوطة من مشاهد مباركة بالقدس الشّريف كان من بينها الكنائس، وعنها يقول" وفي بطن الوادي المذكور–وادي جهنّم– كنسية يعظّمها النّصارى، ويقولون إن قبر مريم عليها السّلام بها، وهنالك أيضاً كنيسة أخرى معظّمة يحجها النّصارى، وهي التي يكذبون عليها ويعتقدون أنّ قبر عيسى عليه السّلام بها.. وهنالك موضع مهد عيسى عليه السّلام يتبرّك به"([47])، وفيها أيضاً كنسية أخرى لها مكانتها عند النّصارى ذكرها بنيامين التّطيلي فقال:" وبالقدس كنيسة أخرى تدعى"كنسية الضّريح الأقدس" منسوبة إلى مسيح النّصارى، يحجّها عدد غفير منهم"([48]).

وأمّا مكانة بيت المقدس الدّينية عند اليهود فقد بدت واضحة في رحلة بنيامين التّطيلي، إذ أتى على الحديث عن المعالم والأماكن الخاصّة باليهود، فقال:" وللقدس أربعة أبواب : باب أبراهيم، وباب داوود، وباب صهيون، وباب يوشفاط وهذا الأخير يحاذي الموضع الذي كان "بيت المقدس" مستويا عليه في قديم الزّمن، وعليه اليوم البناء الذي يسميه الأفرنج "المعبد المقدّس "([49]).

ومن الأماكن التي يحجّها اليهود يورد:"وقبالة هذا البناء يوجد"الحائط الغربي" وهو من حيطان قدس الأقداس في الهيكل القديم، ويسميه اليهود، "باب الرّحمة" يحجّونه لإقامة الصّلاة في باحته"([50])، وهناك مشاهد أخرى استوقفته لها مكانتها عند اليهود يقصدونها حاجين، فذكر منها:"وتشاهد بالقدس أطلال "الإصطبلات" التي عمرها الملك سليمان بجوار قصره، وقد استعمل

([45])المقري، نفح الطّيب، ج2، ص54.
([46])مقدّمة رحلة بنيامين، ص 134.
([47])تحفة النّظار في غرائب الأمصار، ص77.
([48])رحلة بنيامين التّطليلي، ص 249.
([49])رحلة بنيامين، ص 250.
([50])المصدر نفسه ص 251.

في بنائها الصّخر الجسيم المنحوت، مما لا نظير له في بناء آخر، وهناك أيضاً أطلال المذابح التي كانت الأضاحي تقدّم عليها في سالف الأزمان، ومن عادة حجّاج اليهود أن يكتبوا أسماءهم على الحيطان الملاصقة لها"([51]).

ويقف أيضاً عند بعض المعالم الخاصّة بملوك اليهود" وبظاهر المدينة من باب يوشفاط، يشاهد النّصب الذي أقامه أبشالوم، ومرقد الملك عَزّية ونبع سلوان([52]) الذي يمرّ بوادي قدرون، وفوق هذا النّبع بناء من آثار الأسلاف... وتحيط بالقدس الجبال الشّاهقة، منها جبل صهيون، عليه قبر الملك داود(ع) وسائر الملوك من آله "([53]).

ثانيا: مكانتها العلميّة

كانت الغاية العلميّة من الدّوافع الكبيرة التي حدت بكثير من الرّحالة الأندلسيين والمغاربة إلى زيارة بيت المقدس؛ للدّراسة على كبار المشايخ الذين تصدّروا التّدريس في مدارس العلم ومعاهده التي اشتهرت فيه آنذاك، وجعلت من " مدينة القدس محط الأنظار، وقبلة الزّائرين، وملتقى العلماء، ويبدو هذا جليا في قدوم الكثير من العلماء إلى بيت المقدس والمشاركة في الحركة الفكرية هناك"([54]) ، وقد أسهمت عوامل عدّة في تميّز بيت المقدس من النّاحية العلمية والفكرية، حيث انتشر فيه عدد كبير" من معاهد العلم التي كانت في المدينة والتي تناولتها أيدي أولي الأمر وكبار القوم وفاعلي الخير من الموسورين بالرّعاية والإعمار، وما دخل في رسم هذه المعاهد من مشاهير الشّيوخ من أهل القدس وبلاد الشّام أو من دخل إلى المدينة معتليا كرسي التّعليم احتسابا أو بجراية"([55])، وليس أدلّ على نشاط الحركة العلميّة والفكرية في ظل بيت المقدس من المؤلفات التي وقفت على هذا الجانب، فقد ذكر مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل أكثر من خمس وأربعين مدرسة، وما يقرب من خمس وعشرين زاوية ورباط ما عدا المساجد والمراكز العلميّة الأخرى"([56]).

ولقد عكست المغربيّة جانبا من النّشاط العلميّ الكبير الذي كان في رحاب بيت المقدس، حتى إنّهم عدّوا هذا الجانب من الفضائل التي اختصّ بها بيت المقدس دون غيره، فها هو ذا البلوي يشير إلى هذا بعد أن استشهد بالأحاديث النّبوية التي تدلل على مكانة بيت المقدس الدّينيّة، فيقول:" ولو تتبعت الأحاديث المأثورة والأخبار المشهورة لأملأت وملأت ورويت هذا إلى ما أطلعه الله في ذلك الأفق المنير من بدور العلماء وامتنع من صدور الأولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع"([57]).

ويبيّن البلوي أنّ بيت المقدس كان يعج بحركة علميّة وفكريّة كبيرة، إذ احتضن في جنباته عددا كبيرا من العلماء سواء من أهل المشرق أم ممّن وفدوا عليه من بقاع شتّى، وقد أشار إلى كثرة عددهم وتميّزهم وتفردهم فقال:" فسنّ الله إلى البغية ولقيتهم

([51])المصدر نفسه ص251.

([52])تقع بظاهر القدس من جهة القبلة بالوادي ويشرف عليها سور المسجد القبلي ، وهي مجموعة عيون منها: عين أم الدّرج، وبركة سلوان ، والبركة التّحتانيّة، وبئر أيوب. ينظر،الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق، محمود عودة الكعابنة، مكتبة دنديس، 1999، مجلد 2، ص112، وهامش(1)من الصّفحة ذاتها.

([53])المصدر نفسه، ص 253.

([54])عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص 28.

([55]) مطلوب، القدس الشّريف في مدوّنات الرّحالة المغاربة والأندلسيين، ع 32، 1999، ص 34.

([56])المصدر نفسه، ص 34.

([57])البلوي، تاج المفرق،ج1، ص 256.

أجمعين ورويت عنهم، ولما كثر عليّ تعدادهم وقلّ عليّ نظراؤهم وأندادهم انتقيت منهم ها هنا خمسة يتبرّك بذكرهم وتعطر الأندية بشكرهم"([58]) ، وهؤلاء الخمسة هم([59]):

–الشّيخ الخطيب العالم زين الدّين أبو البركات عبد الرّحيم أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم بن أبي الفضل بن سعد بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني الشّافعي.

– الإمام الحافظ مفتي المسلمين صلاح الدّين بن كيكلدى بن عبد الله العلائي الشّافعي الدّمشقي.

– الشّيخ الفقيه المحدث الأديب علاء الدّين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي الشّافعي.

– الشّيخ الفقيه المقرئ الصّالح شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن علي بن مثبت الخولاني الأندلسيّ.

– الشّيخ الفقيه جمال الدّين أبو بكر محمّد بن محمّد بن الحسن بن أبي الحسين بن صالح بن علي بن يحيى بن نباتة.

ويقف البلوي عند كل واحد من هؤلاء الشّيوخ مفتونا بما تميّزوا به من علم ومكارم، فعرّف بهم واحدا واحدا، ومدحهم وأثنى عليهم، حتّى إنّ القارئ لما وصفهم به ليظنّ أنّ كل واحد منهم كان عند البلوي الأخير زمانه، الذي لا يشاركه أحد فيما أثنى عليه فيه، ومن ذلك – على سبيل التّمثيل– حديثه عن أولهم: "فأوّلهم في الحلبة وأولاهم بالتّقديم على هذه العصبة الشّيخ الخطيب العالم زين الدّين أبو البركات عبد الرّحيم بن بدر الدّين أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم بن أبي الفضل بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني الشّافعي سليل العلماء العالمين وقليل النّظراء في عباد الله الصّالحين، تجلّى من مراقب الفضائل والمعارف وتحلّى بالمجد التّليد والطّارف، قصرت الأوهام عند كنه فضله، ونقصت الأحلام عن رجاحة عقله، وعجزت الأقلام عن وصف مثله، كنز من كنوز الكرم لا ينفد على النّفقة ولا (يسئم) من الصّلة والصّدقة (من رجل) ما زادته الرّقعة إلا تواضعا عجبا، ولا أبقت له المعلومات في العجب أربا برع بأحسن صورة ورفع من المجد أرفع سورة، وجمع جمال سمات وجمال سيرة زين به ذلك المسجد الشّريف ومحرابه وعيّن للإمامة والخطابة فيه، وما بقل عذاره ولا كمل شبابه فجلس على الكرسي الأكبر ورقى ذروة المنبر..... "([60]).

ويصوّر البلوي المعاملة الطّيبة التي كان الشّيوخ يعاملون بها طلبة العلم، والحفاوة التي كانوا يلقونها في أكنافهم، ومن ذلك ما تحدّث به عن شيخه زين الدّين أبي البركات"فأدخلني إلى منزله الكريم الذي التصق بابه بمحراب ذلك المسجد العظيم فرأيت منزلا جليل القدر سامي الخطر"([61])، ويصف جود الشّيخ صلاح الدّين الدّمشقي وكرمه وعنايته بطلبة العلم وغيرهم في رمضان فيقول:"ولقد شاهدته بطول الشّهر المذكور وقد اختصّ به واحتلّ بمنزله من طلبة العلم وغيرهم ما ينيف على الأربعين رجلا سوى عائلته، والجميع من عنده يأكلون وإليه ينضمّون يأوون، فسألت ذلك فقيل لي ذلك دأبه وعادته في رمضان كلّ

([58])المصدر نفسه، ص256
([59])عرّف بهم في المصدر نفسه من ص256-ص268.
([60])البلوي، تاج المفرق، ج1، ص 256، 257
([61])المصدر نفسه، ص257.

سنة على تعاقب الدّهور والأزمنة"([62])، وعلى هذه الحال كان دأب شيخه شمس الدّين أبي عبد الله الخولاني الأندلسي، في احتواء الغرباء وإكرامهم، فكان علاوة على عطائه العلمي وإقرائه القرآن الكريم ليس له همّ إلا :" في إطعام كبد جائع وإغاثة ملهوف مغترب شافع فهو مأوى الغرباء وجنان الفقراء ومظان حوائج الإخوان والأولياء"([63]).

ويصف البلوي احتفاء الشّيخ بن نباتة به وإكرامه له فيقول:"فحين رآني أسرع في القيام وبادر إلى اللقاء وإلى السّلام، فخجلت من فعله وعجبت من فضله"([64]).

ومن خلال كلام البلوي عن العلوم والمعارف التي تلقّاها عن الشّيوخ في بيت المقدس نتبيّن أهم الموضوعات التي كانت تدرّس فيه، وأبرز الكتب التي كانت تحظى بعناية الشّيوخ وطلبة العلم، فكان أبرزها العلوم الشّرعيّة واللغوية والأدبيّة، فقرأ على الشّيخ زين الدّين أبي البركات جميع الجزء الذي ألّفه وخرّجه عن شيوخه في أحاديث نبويّة، وفوائد جمّة، وجميع الجزء المسمّى بتنقيح المناظرة في تصحيح المخابرة، وجميع كتاب المنهل الرّوي في علوم الحديث النّبويّ، وهو اختصار كتاب ابن الصّلاح –رحمه الله –، وجميع الخطب المختصرة من خطب ابن نباتة رحمه الله "([65])، وأمّا شيخه الثّاني صلاح الدّين الدّمشقيّ فذكر البلوي ما أخذه عنه قائلا :" ثمّ نذكر بعض ما سمعت من لفظه ونقلت من خطّه أو حفظت، فمن ذلك كتاب الشّفا بتعريف حقوق المصطفى صلّى الله عليه وسلم للقاضي أبي الفضل عياض، ...وسمعت عليه بعض كتاب مسلم بن الحجّاج رضي الله عنه وجميع الجزء الذي صنّفه في تقرير الوحدانيّة لله تعالى، يشتمل على تفسير قوله تعالى :"يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق" (النّساء آية 171)وجميع بغية الملتمس في عوالي حديث مالك ابن أنس من تخريجه ...."([66]).

وأمّا شيخه علاء الدّين فسمع عليه بمجلسه من المسجد الأقصى جميع صحيح الإمام أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه، وسمع عليه جميع الثّلاثيّات المخرجة منه، وسمع منه جميع أحاديث الرّباعيّات المرويّة عن مسلم رضي الله عنه، وجميع الجزء الذي فيه التساعيات من شيخه ابن البخاري، وجميع الجزء الذي فيه ثمانية وثمانون حديثا من مشيخته، وجميع جزء الأنصاري، وجميع الثّمانية عشر حديثا وحديثين عن ثمانية عشر شيخا([67]).

وعن الشّيخ الصّالح شمس الدّين الخولاني الأندلسي روى كتاب عوارف المعارف تأليف الإمام شهاب الدين السّهروردي سمع أكثره بلفظه وتناوله من يده، وسمع عليه من لفظه أيضاً أكثر رسالة الإمام القشيري، وسمع منه أيضاً غير ذلك وأجازه إجازة تامّة وكتب له بخطّه ([68]).

([62])المصدر نفسه، ص 260.
([63])البلوي، تاج المفرق، ج1، ص267/266 .
([64])المصدر نفسه، ص 269.
([65]) المصدر نفسه، ص 258.
([66])المصدر نفسه 261ص.
([67])يُنظر المصدر نفسه،ص266.
([68])ينظر تاج المفرق، ج1، 267..

وأمّا آخر شيوخه ابن نباتة فيذكر البلوي أنّه سأله تقييد شيء من شعره فأخرج له ما ارتضاه منه واختاره في نسخة وصفها البلوي" تغار عليها حبّات القلوب إذ تبديها، وتودّ الأحداق إذا رمقتها لو تبديها (فياضها)بياضها وسوادها بسوادها، فاستعرتها منه وكتبتها عنه، فلمّا رمق ما كتبته أحبّ اقتناءه تجديدا للعهد وحفظا للودّ"([69])، وذكر البلوي أنّه قرأ شعر ابن نباتة عليه، فكتب له بذلك إجازة على ظهر الأصل، أثنى فيها عليه ثناء حسنا، فقال:"الله الموفّق قرأ علي الشّيخ الإمام العالم الكامل الفريد أبو البقاء خالد البلوي الأندلسي شكر الله برّه المغدق وأصله المعرق، وحرس شخصه الذي تقول المحاسن: أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق أكثر هذا النبذ من شعري والرّسالة من إنشائي قراءة ملأ بها سمعا وذهنا، وأربح بها للشّعر نقدا ووزنا ..وأجزت له روايتها وجميع ما تجوز لي روايته معترفا بفوائده الممتازة، عالما أنّه كان يجب أن أجيز من الجائزة لا من الإجازة متطوّقا عوارفه التي عزّ بها الجيد ولا كرامة للدر، ولا عزازة ، ونحلته هذه النّسخة، وسألته إصلاحها بعد أن تعرضّت عنها بنسخة من خطّه الذي يتنافس فيه السّمع والبصر.. قال ذلك وكتبه بن الخطيب بن نباتة العبشهي المصري ثمّ الشّافعي وذلك في شوّال سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بحرمة القدس الشّريف ."([70]).

إنّ ما عرضه البلوي في رحلته لبيت المقدس من معلومات عن النّاحية العلمية يشكّل قيمة كبيرة في هذا السّياق، إذ وقف بنا على أهم الشّيوخ الذين تصدّروا للتدريس في معاهد بيت المقدس، وأهم الأبواب العلميّة التي يتم تدريسها، ناهيك عن الوسائل المتّبعة في تحصيل العلوم والمعارف على اختلاف أبوابها، كالسّماع والقراءة والإجازة، وليس أدل على هذا من نصّ الإجازة الذي ضمّنه رحلته، الأمر الذي يزيد من قيمة هذه الرّحلة من النّاحية العلميّة والتّاريخيّة، وكذلك الرّحلات الأخرى التي ظهر فيها هذا الجانب جليّا لا سيّما رحلة ابن العربي.

ومن أكثر الرّحلات التي تتجلّى فيها مكانة بيت المقدس من النّاحية العلميّة رحلة ابن العربي؛ فهي من أشهر الرّحلات العلميّة:" للعلماء الشّبان الذين كان هدفهم قبل كلّ شيء التّعريف بأساتذتهم وبالعلماء الذين التقوا بهم...فأوّل من وضع الأساس لهذا الفن وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير، هو الفقيه أبو بكر محمّد بن العربي"([71])، ذلك لأنّ رحلته أصلا كانت لطلب العلم، لذا ركز في زيارته لبيت المقدس على هذا الجانب، فأتى على ذكر العلماء الذين لقيهم وأخذ عنهم، وتحدّث عن أبرز المعارف التي تلقّاها، وهو في بداية زيارته كان يظن أنّه لن يمكث طويلا هناك، غير أنّه وجد أنّ ما فيها من مدارس وعلماء وعلوم ومعارف يتطلّب منه الإقامة طويلا، حتّى يتمكّن من العلوم والمعارف التي تتوق نفسه إلى الإحاطة فيها، وقد أدرك ابن العربي هذا الأمر من أوّل مجلس علم حضره في المدرسة الشّافعيّة بباب الأسباط؛ إذ ألفى بها جماعة من علمائها في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرّشيد.. وهم يتناظرون على عادتهم، فوجد ابن العربي صعوبة في فهم ما دار في تلك المناظرة؛ الأمر الذي كان حافزا له على البقاء في بيت المقدس ([72])، ويصور ابن العربي ما اعتراه بعد انتهاء ذلك المجلس من الحماسة والجد في تحصيل العلم في أكناف المسجد الأقصى، ممّا جعله يعزم على إلغاء سفره مع والده إلى الحج

([69])المصدر نفسه، ج1،ص 269.
([70])المصدر نفسه ج 1، ص270.
([71])كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي العربي، ص 298.
([72])ينظر تفصيل ذلك في قانون التأويل، ص 433.

ويبقى في بيت المقدس حتى يرتوي من علم من فيه من العلماء فيقول:"وأقمت حتّى انتهى المجلس فكررت راجعا إلى منزلي وقد تأوّبني حرصي القديم، وغلبني على جدّي في التّحصيل والتّعليم، فقلت لأبي رحمة الله عليه: إن كانت لك نيّة في الحج، فامض لعزمك، فإني لست برائم عن هذه البلدة حتّى أعلم علم من فيها، وأجعل ذلك دستورا للعلم وسلّما إلى مراقيها"([73]).

وكانت بداية ابن العربي في تلقي العلم والمعرفة في بيت المقدس مع الشّيخ أبي بكر الفهري، الذي كان ملتزما في المسجد الأقصى –طهّره الله– بموضع يقال له الغوير، بين باب أسباط، ومحراب زكريا عليه السّلام"([74])، وقد قدّم هذا العالم صورة مشرقة لعلماء بيت المقدس –كما صورها البلوي من قبل– في تعاملهم مع طلبة العلم والأخذ بيدهم حتى يصلوا إلى مبتغاهم، فعليه يثني ابن العربي، فيقول:" وأعلمه أبي بنيّتي فأناب، وطالعه بعزيمتي فأجاب، وانفتح لي به من العلم كلُّ باب، ونفعني الله به في العلم والعمل، ويسّر لي على يديه أعظم أمل، فاتّخذت بيت المقدس مباءة"([75]).

ويصوّر ابن العربي الجهد الذي يبذله طالب العلم والحرص الكبير على تحصيل العلم والمعرفة ، وذلك بتفريغ الوقت كلّه للعلم والانقطاع له وحده" فاتّخذت بيت المقدس مُباءة، والتزمت فيه القراءة، لا أقبل على دنيا، ولا أكلم إنسيّا، نواصل الليل بالنّهار... وأدخل مدارس الحنفيّة والشّافعية كلّ يوم، لحضور التّناظر بين الطّوائف، لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي، وتقاة عدوّ"([76]).

ويتبيّن من حديث ابن العربي عن المجالس العلميّة التي كانت تعقد في رحاب المسجد الأقصى، أنّه كان يشهد حركة علميّة وفكرية نشطة ، لا في إعطاء الدّروس فحسب وإنّما في طبيعة القضايا التي كانت تطرح وتعقد حولها المناظرات؛ إذ يجتمع العلماء من مختلف الدّيانات والمذاهب، يتناقشون ويتناظرون في مسائل تخص مذاهبهم وديانتهم، ومن ذلك ما رواه ابن العربي:"وكنّا نفاوض الكرّامية والمعتزلة والمشبّهة واليهود"([77])، ويورد ابن العربي في رحلته نماذج من تلك المناظرات، ومنها مناظرة كانت مع حبر يهودي يقال له التّستري كانت الغلبة فيها لشيخه أبي فهر، نورد منها:" فقال–أي التستري– اتّفقنا على أنّ موسى نبيّ الله مؤيّد بالمعجزات معلّم بالكلمات فمن ادّعى أنّ غيره نبي فعليه الدّليل.. فقال له الفهري إن أردت بموسى الذي أُيّد بالمعجزات وعلُّم بالكلمات وبشّر بأحمد فقد اتّفقنا عليه معكم وآمنا به وصدقناه، وإن أردت به موسى آخر فلا نعلم ما هو، فاستحسن ذلك الحاضرون وأطنبوا في الثّناء عليه، وكانت نكتة جدليّة عقلية قوية، فبهت الخصم وانقضى الحكم"([78]).

([73])المصدر نفسه، ص 434.
([74])المصدر نفسه، ص435.
([75])المصدر نفسه، ص 435.
([76])ابن عربي، قانون التّأويل، 436.
(78)المصدر نفسه، ص 437.والكرّامية هم أتباع أبي عبد الله بن مكرّم السجستاني يوافقون على السّنة في إثبات الصّفات، لكنّهم يبالغون في ذلك حد التّشبيه والتّجسيم، ويوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله بالعقل.. وهم يعدّون من المرجئة. ينظر هامش 2من الصّفحة ذاتها.
([78])نفسه ص438.

ويبدو أن ثمرة تلك المجالس التي حرص ابن العربي الكبير على تحصيل علوم شيوخها ومعارفهم أثمر؛ إذ لم يزل على تلك الحال من حضور المجالس حتى اطّلع :" على أغراض العلوم الثّلاثة: علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف التي هي عمدة الدّين المَهْيَع إلى التّدرّب في معرفة أحكام المكلّفين الحاوية للمسألة والدّليل، والجامعة للتّفريع والتّعليل"([79]).

ونجد في رحلة ابن بطّوطة أيضاً إشارة إلى النّاحية العلميّة في بيت المقدس، فقد تبيّن من حديثه أنّ زيارة علماء بيت المقدس كانت أمرا أساسيا لا غنى لهم عنه؛ فأشار إلى ذلك في رحلته الثّانية لبيت المقدس، فقال:" ووجدت من كنت أعهده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى، رحمهم الله، فلم يبق منهم إلا القليل مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدّين خليل بن كيكلدي العلائي، ومثل الصّالح شرف الدّين الخشني شيخ زاوية المسجد الأقصى، ولقيت الشّيخ سليمان الشّيرازي"([80]).

وثمّة مفارقة كبيرة نجدها في رحلة العبدري في معرض حديثه عن النّاحية العلميّة لبيت المقدس؛ ففي حين عكست كتب الرحلات الأخرى صورة مشرقة عن الحركة العلميّة في بيت المقدس، وأثنى الرّحالة –كالبلوي وابن عربي وغيرهما – على شيوخه وأشاروا إلى سعة علمهم ومعارفهم وحسن معاملتهم للطّلبة والغرباء نجد أنّ العبدري في رحلته لم يحمد هذا الجانب، ولم يعجبه، ونجده يذمّه قائلا:" ولم أر في هذا البلد مع شرفه واشتهاره من هو أهل لأخذ العلم عنه ولا معنيا به إلا شيخا هو قاضي البلد يلقّب بدر الدّين وهو محمّد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة، له مجلس علم يدرّس فيه أوّل النّهار في المسجد عند المحراب، ومجلس سماع يروي فيه بعد صلاة العصر يوم الجمعة في قبّة الصّخرة، وقد حضرت كلا المجلسين فلم أخرج منهما بطائل وكلّمته في أشياء تخبّط فيها وتعسّف فلم أجد من نفسي إذعانا للأخذ عنه على قلة همّته في الرّواية إذ وجدته يروي عن نظائره من أهل مصر"([81]) وهو لا يكتفي بهذا الحد من النّقد وإنّما يمعن في نقده فيقول: " فله تواليف منها اختصار كتاب أبي عمرو بن الصّلاح في علوم الحديث، ومنها كتاب حذا فيه حذو السّهيلي في كتاب الإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام، أغار فيه على الكتاب المذكور إغارة وسمّاه غرر البيان في مبهمات القرآن، ومنها كتاب المسالك في علم المناسك، لم يأت فيه ببديع، ولا شقّ الظّلماء من بيانه صنيع"([82])، وقد أخذ على العبدري في هذا الجانب نظرته المتشائمة ونقده اللاذع لبعض الأماكن والأشخاص الذين ذكرهم في رحلته، وقد انتقده غير دارس على هذا ، ومن ذلك ما جاء في مقدمة رحلته:"ويبدو أنّ العبدري كان متشائما ويراعي مقاييس لا يقرّه عليها جلّ الباحثين، إذ وصف في رحلته كثيرا من العواصم لا تتفق مع واقعها"([83])، وكذلك عدّ بعضهم هذا الأمر طبعا عند العبدري لا تسلم منه حتى أشرف البقاع،" فقد أخذ عليه الباحثين طريقته في كثرة الذّم للبلاد والعباد، حتّى قال أحدهم لو أمكنه أن يقول في الحرمين هجوا لقال"([84]).

([79])المصدر نفسه، ص438.
([80])مسالك الأبصار ، ص665.
([81])العبدري، الرّحلة المغربيّة، ص230.
([82])المصدر نفسه، ص .231
(2)الرّحلة المغربيّة بتقديم،سعد بو فلاقة، ص 10.
([84])مطلوب ، القدس الشّريف في مدوّنات الرّحالة المغاربة والأندلسيين، ص41

النّاحية العمرانيّة(وصف المكان): لقد وقف الرّحالة والمغاربة– والبلوي خاصّة –عند بيت المقدس من النّاحية العمرانيّة وقفة متأنية، فوصفوه بدقّة من جوانبه ومرافقه كافّة، فوقفوا عند وصف المكان: طبيعة وعمارة؛ ولعلّ مردّ هذه العناية مرتبط ارتباطا كبيرا بمكانة بيت المقدس الدّينيّة والتّاريخية.

وقد تجلّت عنايتهم بوصف المكان واضحة من بداية حديثهم عن دخولهم بيت المقدس، ومن ذلك ما صدّر به البلوي حديثه عند وصوله هناك، إذ استهلّ كلامه بتقديم وصف دقيق لطبيعة المكان وموقعه والجوّ العامّ المحيط به بلغة أدبية تدلّ على انبهاره به وتقديره لعظمته، وكأنّه يرسم صورة المكان بالكلمات، فيقول:"هي بلدة الأفق المنير ونجمه، والنّجم الذي لا تمتطى صهواته وصلناها..فوافينا مدينة واسعة الرّقعة طيّبة البقعة سامية الارتفاع ، مشرفة البقاع، مباركة الأغوار والتّلاع، عذبة المراد، منمنة الأبراد... واسعة الفناء، تسهد لسكّانها بالثّراء والسّناء، قد أخذت من كلّ المحاسن نصيبا، وفوّقت إلى هدف الفضائل سهما مصيبا وملئت ظرفا وأدبا وأوتيت من كلّ شيء سببا.. ظلّ ظليل وماء سلسبيل، تنساب مدانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ورياضات تحيي النّفوس بنسيمها العليل تتبرّج لناظرها بمجتلى صقيل"([85]).

وأمّا المسجد الأقصى تحديدا فقد وصفه الرّحالة وصفا دقيقا: مساحة وعمارة ووقفوا عند أبوابه وزواياه وسواريه ومدارسه وما فيه من نقوش ، وفيما تفصيل هذه الجوانب.

المساحة

تحدّث البلوي عن مساحته طولا، وعن أبوابه وسواريه فيقول:"وهذا المسجد الشّريف هو أعظم مساجد الدّنيا طوله سبعمائة وثمانون ذراعا وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا فيكون تكسيره في المراجع الغربيّة مائة مرجع، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية "([86]).

ويقف العبدري عند جمال المسجد الأقصى ويصف مساحته فيقول:"والمسجد المقدّس هو من المساجد العجيبة الرّائقة، المنشرحة الفسيحة وهو متّسع جدّا طولا وعرضا، وذكر أبو عبيد البكري أنّ طوله سبع مائة واثنان وخمسون ذراعا بالمالكي([87]) وهو ثلاثة أشبار وطوله من الجنوب إلى الشّمال وعرضه أربع مائة وخمس وثلاثون([88]).

السّواري:

وقف الرّحالة عند سواري المسجد الأقصى وأبوابه فيصفونها، ومن ذلك ما قاله البلوي" وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية وأبوابه خمسون بابا يطيف به سور سعته ثلاث خطوات قد أسس بالحجارة العظيمة .. والمفتوح الآن من أبوابه اثنا

([85])البلوي، تاج المفرق ، ج1، ص245.
([86]) المصدر نفسه، ج1،ص 246.
(89) يساوي الذّراع عند المالكيّة (53 سم)،علي جمعة محمّد، ينظر كتاب المكاييل والموازيين الشّرعية، ص50

عشر بابا كلّ باب منها له الوجه المنقش المحسّن المرقّش. فيها باب مصفّح بالعقيان واللجين مغمّد بهما قد قام على ما راق الأبصار وأعجب النظّار (ومنها باب الرّحمة وباب التّوبة بابان من الجهة الشّرقيّة"([89]).

الأبواب:

ويصف العبدري أبوابه وإتقان صناعتها وزركشتها ، فيقول:" وله أبواب كثيرة من الشّرق والغرب والشّمال ولا أعلم له بابا قبليّا سوى الباب الذي يدخل منه الإمام، وذكر بعض النّاس أنّ عددها خمسون بابا"([90]).

المنبر:

ومن الأركان التي أذهلت البلوي بجمالها وحسن صناعتها في المسجد الأقصى المنبر والمقاصر والسّواري، فيصفها بقول:"والمنبر الذي جمع الله فيه من كلّ إبداع عجيب واختراع غريب والمقاصر التي لا نظير لها غرابة صنعة وجود إنشاء والسّواري المفضضة الملوّنة من ألوان شتّى "([91]).

المحراب:

واستوقفه أيضاً قبّة محراب المسجد الأقصى فيصفها متناولا أبعادها وشكلها الهندسي وتزيينها الذي زاد جمالها ، فيقول:"وقد قامت بين يد المحراب منتظمة به (قبّة) عظيمة جليلة منقسمة على أفنان معقودة بأقواس محنية متراكبة مدخلة على ألوان شتّى، وتصنيف غريب ، مذهبة ما دخلها في التّثمين والتّسديد والتّربيع بتذهيب مشجّر مورّق بالذّهب مصنف محكم قد رونق الحسن استتمامها واستوفت من حظوظ البراعة أقسامها، لها منظر رائع ورواء لامع فتراها تشتعل ذهبا وتستقلّ عجبا"([92]).

المساجد والمدارس المحيطة به:

ويعرض البلوي لوصف ما أحاط بالمسجد الأقصى من مساجد ومدارس، فيقول":وبشرقي هذا المسجد متّصلا به وداخلا فيه المسجد المبارك، الذي بناه أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، وبجوفه تربيعة خلفها محراب زكريا عليه السّلام.. وبخارج المسجد الأعظم من ناحية المشرق مسجد بقبتين، يعرف بمسجد عيسى، وفي شرقيه باب له مدارج كثيرة تفضي تحت الأرض إلى موضع كبير حسن كمسجد فيه مهد مصوّر من الحجر الصّلد يذكر أنّه مهد عليه السّلام ، وبغربيه مسجد حسن للمالكية يسمّى بمسجد المغاربة تلاصقه من ناحية الغرب مدرسة حافلة تسمّى الفخريّة"([93]).

([3])البلوي، تاج المفرق،ج1، ص247.
([4])العبدري، الرّحلة المغربيّة، ص229.
([91])البلوي، تاج المفرق،ج1، ص 247.
([92])المصدر نفسه،، ج1، ص 247.
([93])البلوي، تاج المفرق، ج1، ص 248.

ويقدّم البلوي صورة للمسجد من خارجه وما أحاط به من أجياب كثيرة، وما تميّز به من ثمار، ويذكر روايات وأخبار تاريخية حول تلك الأجياب([94]).

قبّة الصّخرة:

وأمّا قبة الصّخرة المشرّفة فكان من الطبيعي أن تحظى بانبهار الرّحالة وإعجابهم بها والوقوف عندها ووصفها؛ وقد تجلّى ذلك الانبهار من قول البلوي" القبة العظيمة القدر الكبيرة الخطر التي كأن محاسن الدّنيا مجموعة فيها ومحصورة في نواحيها فهي من أعاجيب الدّهر وأحسن ما يرى في البصر ويتخيّل في الفكر(قبّة الصّخرة الكريمة)"([95])، ونلمحه أيضاً من كلام العبدري:" وفي وسط فضاء المسجد قبّة الصّخرة وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض وأتقنها وأغربها قد نالت من كلّ حسن بديع أوفر حصّة وتلت من الإتقان ظاهره ونصّه، وتجلّت في جمالها الرّائع كعروس حسناء جليت على منصّة ، قامت مشرفة متبرّجة على يفاع"([96]).

وما كان انبهار الرّحالة بقبة الصّخرة ليأتي من فراغ أو أنّه كان مبالغة منهم وإنّما كان لما تميّزت به قبّة الصّخرة من جمال ودقّة في الصّنع وما زيّنت به من الذّهب والنّفائس حتّى بلغت الغاية في السّحر والإبداع، وقد تجلّى هذا من وصفهم لها، ومن ذلك وصف البلوي إذ يقول عنها:" وهي مصنوعة من قبّة مثمّنة الحائط والأركان من داخلها وخارجها مستوية السّقف، أعلاها ذهب مضروب في صنائع عجيبة وجوانبها كلها من داخلها ملبّسة بألواح الرّخام المنثور الملصق إلصاقا محكما مخطّطا بالخطوط الكحل تخطيط القدرة الرّبّانية فجاء منها خواتم عجيبة وطوالع مختلفة الصّناعة غريبة، وفي وسط هذه القبّة المثمّنة المستوية السّقف قبّة أخرى قد بعد في السّماء مرتقاها حتّى تساوى ثراها مع ثريّاها"([97])،ولعلّ تميّز قبّة الصخرة وجودة صنعها يعود– كما يظهر من وصف البلوي لها– إلى السّخاء الكبير الذي حظيت به إذ" بلغت زنة الرّصاص الذي على سقف قبّة الصّخرة هذه ثلاثين ألف قنطار بالدّمشقي وهو بالمومني مائة ألف وعشرون ألف قنطار كاملة، وذكر عبد الملك ابن حبيب أنّ عبد الملك بن مروان بنى القبة على الصّخرة وجعل الجانبة التي أعلا القبّة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطليّة بالذّهب في كلّ صفيحة سبعة مثقال وأفرغ على رأس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهبا"([98]).

ومن الأمور التي تميّزت بها القبة الصّخرة التي تحتها، فهي كما يصفها البلوي،" كالجبل الرّاسي والطّود العظيم معلّقة وسط الفضاء بين الأرض والسّماء لا صعودا ولا نزولا ، إنّما يمسكها الذي يمسك السّماوات والأرض أن تزولا ، وقد انصنع بهذه الصّخرة الشّريفة والبنيان الدّائر بها نوع مغارة كبيرة تفضي إليها أدراج جملتها خمسة عشر درجا وفيها سطح مفروش

([94])ينظر تفصيل ذلك في المصدر السّابق ، ص 249/248.
([95])البلوي، تاج المفرق، ج1، ص 249.
([96])العبدري، الرّحلة المغربيّة، ص 229.
([97])البلوي، تاج المفرق، ص 249.
([98])المصدر نفسه،ج1، ص250.

بالرّخام المجزّع المختلف الأوان البديع الصّنعة وهو موضع مبارك للصّلاة "([99])ويسترسل البلوي في وصف الصّخرة المباركة فيتحدث عن شبابيكها وأبوابها، ويصف هذه الأبواب وصنعتها وصفا دقيقا يظهر جمالها المعماريّ وتميّزها([100]).

و يبدو من وصف قبّة الصّخرة وحديثه عن تميّزها وجمالها أنّها بلغت من التّميّز حدّا جعلها مضرب المثل " وبلغ الخاصّة والعامّة خبرها وبعد فيهم صيتها وارتفع ذكرها وعظم خطرها وتوافى النّاس إليها من البعد والقرب والشّرق والغرب متأملين لها متعجّبين من مونق مرعاها ورونق سناها "([101]).

وقد أشار البلوي أن هناك عددا كبيرا من القباب غير تلك التي وقف عليها ووصفها، الأمر الذي جعله يغض الطّرف عن وصفها اختصارا واكتفى بذكر أمثلة عليها فأورد منها: قبّة الرّكن المشرقي الحافلة، وقبّة المعراج، وقبّة الميزان الرّخاميّة، وقبّة موسى البديعة، وقبّة سليمان الرّائقة([102]).

وعلاوة على تميّز المسجد الأقصى من النّاحية العمرانية يصف البلوي الدّور الذي تقدّمه المساجد والمدراس والقباب المحيطة به فيقول: وفي كلّ مسجد من تلك المساجد ومدرسة من تلك المدارس وقبّة من تلك القباب إمام عاكف به قائم عليه، ولقد عددت مواضع الأشفاع وصلاة التّراويح بها في شهر رمضان المعظّم فألفيتها نحو الأربعين موضعا"([103]).

إنّ المتأمل في وصف البلوي لبيت المقدس يجد أنه أحاط بتفاصيل المكان ووقف عند مرافقه بدقّة متناهية، فكأنّه أمضى في حياضه وقتا طويلا حتى استطاع أن يأتي على وصفه بهذه الدّقة والإحاطة الشّاملة، وقد استعان البلوي في وصف المكان ونقل صورته واضحة جلية بآليات متعدّدة نقل من خلالها صورته وموجوداته، ومن هذه الآليات توظيف العدد ، حيث كان يورد عدد الأشياء التي يصفها كالأبواب والقباب والأدراج والشّبابيك والأجياب، وغيرها –مما مثّلنا عليه سابقا–، وغير خاف أن التفصيل في ذكر عدد الموجودات دليل واضح على تدقيق البلوي في المكان وعنايته بكل ما فيه، الأمر الذي أسهم في وضوح تفاصيله ونقلها بدقة.

ومن الأمور الأخرى التي استعان بها البلوي في وصفه للمكان توظيف اللون حيث نقل لنا صورة المكان والألوان التي زيّنته وأضفت عليه جمالية رائعة أدهشته ومن ذلك قوله:" وجعل على الجانبة التي أعلا القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذّهب في كلّ صفيحة سبعة مثقال وأفرغ على رأس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهبا وفي وسطها مكتوب بالذّهب في أرض سماوية لازوردية"([104])، ويظهر اعتماده على الألوان في وصفه للسواري وتحديد ألوانها بدقة" والسواري المفضضة الملوّنة من ألوان شتى من حمرة قانية وصفرة فاقعة وبياض ناصع ومن الجبرية الحالكة الصافية

([99])المصدر نفسه، ج1، ص 251.
([100])المصدر نفسه،
([101])المصدر نفسه، ص249.
([102])المصدر نفسه، ص253.
([103]) البلوي، تاج المفرق، ج1، ص 253.
([104])المصدر نفسه،ج1، ص 250.

ومن الخبرية المجزعة العجيبة البديعة كلها مطلية الرؤوس بالذّهب الذآئب والتبر الخالص"([105]) لم يتّكئ البلوي على اللون وحده في وصف المكان وإنما بنى منظومة اقترانية بين اللون وصفته الأقوى ولعل المخطط الآتي يبين ذلك بصورة واضحة:

الحمرة.....القانية

البياض .....النّاصع

الصّفرة..... الفاقعة

الذهب.....الذّائب

التّبر.....الخالص

ويتجلّى اتكاؤه على توظيف اللون ودوره الجمالي في نقل صورة المكان في وصفه للقبّة فيقول: "لها منظر رائع ورواء لامع فتراها تشتعل ذهبا وتستقل عجبا، فيها تواريخ مكتوبة بالذّهب في أرض فيروزيّة وفي أرض حمراء زنجفورية مكتوبة بالذّهب"([106]) .

إنّ الأوصاف القويّة للألوان تعكس الانفعالات النفسية لرؤية الرحّالة "البلوي" لهذا المكان المقدّس المهيب، وتنقل للمتلقي صورته واضحة جلية، كأنه يريد أن يجعله يشاهد ما رآه بأم عينه كما هو بألوانه دون زيادة أو نقصان.

ومن الأمور الأخرى التي استعان البلوي بها في وصف المكان ذكر تفاصيل وصفية دقيقة تحدد مكوّنات المكان وأحجامها وشكلها، فظهرت –على سبيل المثال –تفاصيل موجودات المكان من خلال وصف البلاط الرخامي([107])، والاتجاهات الدقيقة لقبة الصخرة، والإشارة إلى أثر قدم النبي الذي يتبرّكون به([108])، وهذه الأوصاف تعكس الأبعاد الاجتماعية والفكرية التي كان يمارسها الناس تبركا بموضع قدم الرسول –صلى الله عليه وسلم– .

واستعان البلوي بالحواس فيما نقله من مشاهد للمكان ومن ذلك:" نزلنا منزلا بديعا ماؤه، راق روضه، ورقّ صفاؤه وهواؤه ، وتفسّحت مساحاتها، وتأرجت أرجاؤها([109])" وتتجلّى صورة الأشياء مجسّمة واضحة (بصريا)من خلال وصفه للمحراب وما فيه من السواري والموجودات الأخرى:" وقد قامت بين يدي المحراب منتظمة به عظيمة جليلة منقسمة على أفنان معقودة

([105])المصدر نفسه، ج1، ص247.
([106]) البلوي، تاج المفرق،ج1، ص 247.
([107])نفسه، ص251.
([108]).نفسه، ص 251.
([109]) تاج المفرق ، ص245.

بأقواس محنية متراكبة مدخلة على ألوان شتى وتصنيف غريب مذهبة ما دخلها في التثمين والتسديد والتربيع بتذهيب مشجّر مورّق بالذّهب"([110]).

واستعان البلوي في نقل صورة المكان ووصفه للمتلقي بالنّقل الحرفي لما كُتب على جدرانه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وتواريخ ورسومات([111])، نقلها بحرفيتها كما هي دون تغيير فيها، الأمر الذي يدلّ على دقّته المتناهية في رصد كل ما في المكان كما هو.

إنّ المتأمل في طريقة البلوي لوصف المكان يجد أنّه حاول أن ينقل لنا صورة بيت المقدس كما تجلّت أمامه، فرصدها بكلماته التي رسمت لنا صورة المكان بكل تفاصيله وتجلّياته: لونا وحجما وعددا حتّى كأن القارئ كان برفقة البلوي ورأى ما رآه عيانا.

([110])المصدر نفسه، ج1، ص 247.
([111])منها على سبيل المثال يُنظر ص 248، 252، 251.

الخاتمة

تناولت هذه الدّراسة عددا من الرّحلات المغربية التي زار أصحابها بيت المقدس، ووقفت بصورة خاصّة عند رحلة البلوي المعنونة"تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، فتبيّن أن عناية البلوي والرّحالة الآخرين –الذين تناولت الدّراسة رحلاتهم– ممّن زاروا بيت المقدس انحصرت في التّركيز على الحديث عن بيت المقدس من النواحي الآتية: الدّينيّة، والعلميّة، والعمرانيّة التي تجلّت من خلال وصف المكان.

أمّا النّاحية الدّينيّة فقد وقف فيها البلوي وغيره من الرّحالة عند مكانة بيت المقدس الدّينية وتصوير الارتباط الرّوحي به، وإيراد الآيات القرآنية والأحاديث التي تدلل على ذلك، وتبيّن فضل بيت المقدس على غيره من الأماكن كونه: مدينة الرّسل والأنبياء، وموضع إسراء النّبي–صلّى الله عليه وسلم– ومعراجه إلى السّماء، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين، كما تجلّت مكانة بيت المقدس عند الرحلة من غير المسلمين الذين زاروها ومنهم بنيامين التّطيلي الذي ركّز على الأماكن المقدّسة عند اليهود والنّصارى .

وأمّا النّاحية العلميّة فقد تجلّت بصورة واضحة في رحلة ابن العربي ورحلة البلوي، فتبيّن من تناولهم لهذا الجانب المكانة العلميّة الكبيرة لبيت المقدس، الأمر الذي جعله قبلة يحجّها طلبة العلم من كل مكان، يلتقون فيه بالعلماء والشّيوخ ويدرسون العلوم المختلفة في رحاب مدارسه المتعدّدة، وقد حفلت رحلة البلوي بذكر أسماء أهم الشّيوخ والمدارس، وما كان يدرسه طلبة العلم من علوم ومعارف وكتب،وقد فصّل البلوي في هذا الجانب وضمّن رحلته أيضاً نص الإجازة التي منحه إيّاها ابن نباتة، ممّا زاد من قيمة هذه الرّحلة من النّاحية العلميّة علاوة على النواحي الأخرى.

وأمّا النّاحية العمرانية فقد وقف الرّحالة المغاربة– والبلوي خاصّة –عندها وقفة متأنية،

فوصفوا بيت المقدس بدقّة من جوانبه ومرافقه كافّة، فوقفوا عند وصف المكان: طبيعة وعمارة؛ ولعلّ مردّ هذه العناية مرتبط ارتباطا كبيرا بمكانة بيت المقدس الدّينيّة والتّاريخية، ولقد تميّز البلوي في هذا الجانب حيث حاول أن يقف بدقّة كبيرة عند المكان وتجليته بكل تفاصيله، فوصف أبوابه وقبابه وشبابيكه وأسواره وسواريه وطبيعته وكل ما اتّصل به من موجودات موظفا اللون والحواس وكل ما آوتي من وسائل تسهم في رصد صورة واضحة له، قدّمها البلوي للمتلقي رسما بالكلمات التي بدت وكأنها عدسة باصرة نقلت الصّورة واضحة كما هي، تدلّ على تفاعل الرّحالة مع المكان وانبهاره بجماله وسحره الأخّاذ.

" وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين"

المصادروالمراجع:

ابن بطّوطة،(1987م) *تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*، تقديم وتحقيق محمّد عبد المنعم العريان، إحياء العلوم، بيروت، ط1.

بنيامين *رحلة بنيامين*، نسخة مصوّرة في مكتبة الجامعة الأردنيّة، دون معلومات

البلوي،(1964)، *تاج المفرق في تحلية علماء المشرق*، مقدّمة بقلم الحسن السّائح، جامعة محمّد الخامس الرّباط.

العبّادي، أحمد مختار، (2000م)، *نظرة أهل المغرب والأندلس نحو القدس*،مؤتمر فلسطين في ضوء أوراق البردي والنّقوش، مركز الدّراسات البرديّة والنّقوش، جامعة عين شمس، مصر.

العبدري، أبو عبد الله محمّد، *الرّحلة المغربيّة*، تحقيق محمّد الفاسي، الرّباط، جامعة محمّد الخامس.

_____*الرّحلة المغربيّة* ، (2007م)م، تقديم سعد بو فلاقة، منشورات بونة للبحوث والدّراسات، الجزائر.

عبد المهدي، عبد الجليل، (2009م)، *الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى*، منشورات وزارة الثّقافة، عمّان.

ابن العربي، *قانون التأويل،(د.ت)*،دراسة وتحقيق محمّد السّليماني، دار القبلة للثّقافة الإسلاميّة جدّة، ومؤسسة علوم بيروت.

العسلي، كامل، (1992م)، *بيت المقدس في كتب الرّحلات عند العرب والمسلمين*، عمّان.

_____ الأعمال المقدسية الكاملة،(2009م)، مجلد2، عمّان، منشورات وزارة الثّقافة.

العليمي، مجير الدين الحنبلي ، (2009م) ، *الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل*، منشورات وزارة الثّقافة، عمّان.

كراتشكوفسكي، *الأدب الجغرافي العربي*،(د.ت) لجنة التأليف والترجمة والنّشر، اللجنة الثّقافية في جامعة الدّول العربيّة، نقله إلى العربيّة صلاح الدّين عثمان هاشم.

مبيضين، مهند، (2009م)م، *القدس في رحلة ابن عثمان المكناسي*،المجلة الثّقافية ، الأردن، ع 76.

المقّري، أحمد بن محمّد التّلمساني، (1997م) ، *نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب*، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت،.

مطلوب، ناطق صالح، (1999م) ، *القدس الشّريف في مدوّنات الرّحالة المغاربة والأندلسيين*، آداب الرّافدين، العراق، ع 32.